عن جيل فقد الطريقة وجيل يوشك أن يفقد الطريق

محمد طلبة رضوان

تربّينا، نحن أبناء جيل «الربيع العربي»، على كتابات من سبقونا من فلاسفة ومفكرين وشيوخ دين وأدباء وكتّاب ونقّاد، ذهبوا مذاهب شتّى بحثاً عن إجابات أسئلة واقعنا. إرث طويل من المكابدات والتجارب والأخطاء، وصراعات بلغت في شططها حدّ التكفير والتخوين وتكسير العظام، لكنّها لم تفقد في خطاباتها الرئيسة، وفي أغلب هوامشها، حدّ الاختلاف حول البديهيات. كان الخلاف، في الغالب، حول الطريقة، ولم يتدنَّ يوماً، في خطابات الصدارة، إلى دركات الخلاف حول الطريق، لم نقرأ يوماً من ينظر إلى أنّ إسرائيل ليست العدو، ومهمّتها حراسة المصالح الغربية الاستعمارية في بلادنا، قرأنا كثيراً عن اختلافات جذرية حول طرق المقاومة، وأيديولوجيات المقاومين، ومدى جديتهم ونفعهم وفهمهم ووعيهم واتساقهم، لكنّنا لم نقرأ أو نسمع يوماً من يخبرنا من دون مواربة: «لا تقاوم». ومن موقع الكاتب الوطني، المنحاز إلى قيم الحرّيات والديمقراطية (!)

في عام 1996 استضافت قناة الجزيرة محمّد عمارة ونصر حامد أبو زيد (رحمهما الله) للنقاش في أفكار أبي زيد. واتهم عمارة (ساعة على الهواء) فكَر أبي زيد بأنّها جزء من الحملة الاستعمارية على العالم الإسلامي، وأنّ أبا زيد تورّط في هذه الفِكَر، ربّما من دون قصد، فيما حاول أبو زيد أن يقنع عمارة بأنّ قراءته غير علمية إنّما متربِّصة وأيديولوجية. وقبل أن يوشك الحوار على الانتهاء من دون أن يقتنع أيّ من الطرفَين بوجهة نظر الآخر، قال عمارة، في معرض حديثه بعد تأكيدات بأنّ ما يقوله حقيقة لا مجاملةَ فيها، إنّ تقييمه للموقف السياسي لنصر أبو زيد أنّه «وطني.. متماسك.. عروبي.. ضدّ الصهيونية.. ضدّ الاستعمار.. يدافع عن كرامة الأمة». هكذا كان عمارة بطريقته، وهكذا كان نصر بطريقته، وهكذا كان أغلب كُتّاب ومفكري جيلهم المُؤثّرين، على اختلاف طرائقهم، وما دون ذلك كان أقلّ من هامش مُستهجَن، وغير ذي وزن أو قيمة أو اعتبار من أيّ طرف.

إذا تابعتَ نقاشات الأطراف التي تستحق هذا الوصف منذ السابع من أكتوبر (2023)، وتوقّفتَ أمام كثير من الآراء والكتابات والتعليقات بعد اغتيال نصر الله أخيراً، ربّما تُشاركني الرأي في أنّ أزمتنا الآن تجاوزت مآلات الممارسات الإسلاموية للسياسة، وما يقابلها من ممارسات ثقافويّة لا تقلّ سذاجةً وخطورةً، أو الأحكام الطهرانية المتهوّرة غير المسيَّسة وغير الواقعية لمواقف وممارسات سياسية، أو حتّى الاختلاف حول المناهج والطرائق والأساليب والأيديولوجيّات، إنّما يوشك أبناء هذه اللحظة أن يفقدوا الطريق نفسه، وبات لزاما على بعضنا التدليل على ما قبل البديهيات، إسرائيل هي العدو (هذه معلومة)، وهي هنا في بلادنا، امتداد للاستعمار الغربي في صورته الأكثر ذكاء، والأكثر وحشية إذا لزم الأمر، هي هنا لمزيد من تمكّن الغرب الاستعماري من نهب ثرواتنا، وإعاقة تقدّمنا، بما نملكه من إمكانات بشرية ومادّية جبّارة حال اتحادنا. المقاومون سياسيون لهم أخطاؤهم القاتلة، بعضهم مُستبِدّ، وبعضهم تورّط في مساندة أنظمة استبدادية، وفق حساباته وتوازناته، وتسبّب في مقتل آلاف الأبرياء، وبعضهم لا يصلّي ولا يصوم، وبعضهم انتهازي، وقد نزل قرآن في أصحاب النبي (ص) يقول: «منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة». ذلك لأنّهم بشر، وكذلك المقاوم، الذي يظلّ رغم أخطائه (وجرائمه) كلّها مقاوماً، لا تنفي ممارستُه مواقفَه، والعكس صحيح. كان ذلك مفهوماً وبديهيّاً لدى من سبقونا، والآن صار موضعَ خلاف. فعل المقاومة نفسه صار خلافاً في معركة مفروضة علينا، وقد أثبتت تجاربنا كلّها في تفاديها أنّه لا سبيل إلى ذلك، فالعدو هنا ليقتل، والعدو هنا لينهب، والعدو هنا ليتوسّع، والعدو هنا لإفشالنا، من دون سبب واقعي آخر، سواء قاومتَه أو استسلمتَ له بدعوى أنّ الاعتراف بالهزيمة يعني الاستسلام حلّاً أخيراً، مُجرَّد طرح هذه الإحباطات بوصفها فِكَراً ورؤىً واقعية يخبرك من نحن الآن، وأين نحن الآن، وربّما يخبرك عن المعنى الحقيقي للهزيمة، والطريق الوحيد لتجاوزها.

في الذكرى الخامسة لـ«تشرين» العراقي

أحمد سعداوي

كانت تظاهرات أكتوبر/ تشرين الأول 2019 حدثاً كبيراً، مسّ غالبية العراقيين بطريقة أو بأخرى، فمنهم من شارك في هذه التظاهرات، ومنهم من أيّدها أو عارضها، أو عمل حثيثاً على إجهاضها، أو تفاعل معها بشكل من الأشكال.

يكاد تشرين العراقي بهذه الصفة يلامس الأحداث المفصلية الكبرى في تاريخ العراق المعاصر. كان فيضاناً مكبوتاً للوطنية العراقية انفجر باتجاه السطح، وفاض على كلّ الفعاليات الاجتماعية والسياسية، وحتّى الدينية، وكان أيضاً من أشكال الصدام المجتمعي والسياسي. ومن الأشكال البارزة التي كشفها «تشرين»، الأزمة الداخلية لـ«الشيعية السياسية»، وأقول: داخلية، بمعنى تعامل الشيعية السياسية مع المجتمع الشيعي تحديداً، ولا سيّما الأجيال الجديدة الشابّة، التي فتحت عيونها على نظام سياسي يتحدّث على مدار الوقت عن نظام الرئيس العراقي الراحل صدّام حسين، إلّا أنّ هذا الجيل الشاب لا يعرف نظام صدّام ولم يعاصره، وإنّما عاصر أشكالاً خيالية من الفساد، والتعدّي على حقوق الناس تحت عمامة الشيعية السياسية.

المفارقة الكبرى أنّ الفعاليات الثقافية والإعلامية التي تشرف عليها الأحزاب الإسلامية الشيعية لم تستطع تقديم حقيقة نظام صدّام، واكتفت بشيطنته وتحويله شمّاعةً لتعليق الأخطاء كلّها، بل استخدمته لإرهاب الخصوم، فكلّ من يعارضهم هو صدّامي بنظر هذه الأحزاب، وهذا كلّه ساهم في جعل صورة صدّام شاحبة وغير واقعيةٍ. وبالتالي، لم تتعلّم الأجيال الجديدة شيئاً مفيداً عن رهبة ورعب وإجرام نظام صدّام، ثمّ جاءت موجات مواقع التواصل الاجتماعي لتسمح بإنتاج صورٍ ملطّفةٍ ومعاد إنتاجها لمستخدمين مجهولين، جعلوا من مقاطع الفيديو القديمةً لصدّام جزءاً من حالة النوستالجيا لنظام سابق كان «قوياً»، حسب تفسير هؤلاء المستخدمين المجهولين، وأفضل (بالضرورة) من النظام الحالي.

كان من الطبيعي أن تستخدم الآلةُ الإعلامية والدعائية لأحزاب السلطة تهمةَ البعثيّة والصدّاميّة في مواجهة الشبّان، الذين خرجوا إلى الشوارع والساحات ومعهم مجموعة كبيرة من المطالب، قد تبدأ من البحث عن فرص عمل ولا تنتهي عند الرغبة باستعادة الوطن والوطنية من فكّي الأحزاب الطائفية، وقد ينادي بعض المتظاهرين، بانفعال وحرقة، بالدعوة إلى اسقاط النظام.

هذه المطالب كلّها، التي وحّدتها الساحات، كانت تشير بالإصبع مباشرة إلى فشل النظام الذي أُنشِئ بعد 2003 في تلبية طموحات المواطنين، وما هو أكثر أهمّية، فشل هذا النظام في فهم سيكولوجيا الأجيال الجديدة، والطرائق التي يُفكّرون بها.

كلّ إنسان مسّه حدث تشرين، بطريقة أو بأخرى، لديه حكاية مع تشرين، وحكايتي الشخصية أنّها كانت امتحاناً للمواقف، واخترت أن أكون في صفّ الضحايا من الشبّان المتظاهرين الذين سقطوا بنيران حكومة عادل عبد المهدي المُجرمة، ومن يدعمها من أحزاب متنفّذة، ولم أغلق حساباتي في مواقع التواصل أو أصمت، كما فعل بعضهم، وبقيت مُؤيّداً ومناصراً، بل ومشاركاً في الموجة الثانية من التظاهرات، التي انطلقت في 25 أكتوبر، الأمر الذي زاد من التهديدات الجديّة على سلامتي الشخصية، حتّى وصلت إلى لحظة فاصلة كان فيها القرار الأسلم هو مغادرة بغداد، للحفاظ على الحياة، وعلى مستقبل العائلة. من زاوية حكايتي الشخصية، فإنّني مُلتزم أخلاقياً بدماء الضحايا، التي لم ينصفها القانون العراقي حتّى اليوم، ولم يكشف عن مصير المغيَّبين والمفقودين، بل دخلنا في مهازلَ كثيرةٍ ترينا كيف أنّ الفاعلين السياسيين يتلاعبون بالقانون والمؤسّسات وكلّ شيء من أجل أن يفلتوا من العقاب. من هذه الزاوية تحديداً، لستُ معنياً بالذين انقلبوا أو تغيّرت مواقفهم، وجرى شراؤهم بالمال السياسي لكي يصطفوا مع هذا الحزب أو ذاك، بعد أن كان يواجههم منتقداً ومحتجّاً في ساحات التظاهر.

ماذا فعلتَ بنفسك يا حزب الله؟

عبير نصر

تفترض وقائع راهنة، في مجملها، أهمّية البحث في طبيعة العلاقة التي جمعت نظام الأسد بحزب الله، الذي أسّس أيديولوجيته السياسية على مقاومة الاحتلال، دعمته مُتغيّراتٌ كثيرةٌ، أكثرها أهمّية الانسحاب السوري من لبنان وتصدّره المشهد العام، إضافة إلى حرب تموز (2006)، التي منحته بُعداً عربياً وإسلامياً كبيراً لضربه مقولة «الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر»، وهو ما آل بالضبط إلى تحوّل أمينه العام، حسن نصرالله، المتمتّع بكاريزما لافتة، رمزاً شعبياً كبيراً، وتحوّل حزبه لاعباً إقليمياً مؤثّراً مركزه لبنان، وشريانه سورية، ومحرّكه إيران.

على التوازي، يشير الجدل المحموم اليوم حول التصعيد الملتهب بين حزب الله وإسرائيل، بوضوح إلى رغبةٍ جليّة في اجتثاث الذراع الإيرانية في لبنان، قد تدفع المنطقة نحو حرب مفتوحة، وما من مبالغة في أهمية اغتيال حسن نصر الله، وفي خصوبة الحدث سياسياً، بينما يعتبره كثيرون «عدالةً إلهيةً» طاولت الحزب بعدما أصبح محلّ خلاف وانتقاد و«شيطنة»، وتأكيد تحوّلاته التي كشفت الجانب الطائفي الكامن في طبيعة الحزب ودوره وأهدافه، فدخل موالوه دوامة معقّدة من التيه وفقدان البوصلة.

إلى ذلك، يرى مُحلّلون (بغض النظر عن المقاربات الأخلاقية لأفعال حزب الله في سورية)، أنّ مشهد الشماتة الذي يسوّقه بعض السوريين لم نشهده يوماً، مع إمكانية تصفية الحسابات مع حزب الله عبر أيّ طريق غير إسرائيل. ورغم أنّهم لم ينسوا بعد احتفال أنصاره بتوزيع الحلوى فرحاً بالنصر على بلدة القصير السورية، فالأمر لا يمرّ تحت عتبة الصفح حرفياً (إنْ جاز التعبير)، لأنّ حرائق لبنان ستطاول سورية، حكماً، بدلالة استهداف إسرائيل فجر الاثنين (2024/9/30) معبر جديدة يابوس الحدودي مع لبنان.

العرض المُكثّف آنف الذكر، الذي يعكس في جانبٍ منه مُخرجات الاستبداد الأسدي وأدبيّاته، يدفعنا إلى النظر مليّاً إلى الداخل؛ نهاية حزب الله بدأت فعلياً مذ وقف مع نظام الأسد لحمايته من السقوط، فتحوّل من حركة مقاومة يحتضنها الشارع العربي فرقةً للموت تفتقر لأيّ شرعية أو احترام، خاصّة أنّ الحزب، وكلما نعى أحد قياداته التي اغتالتها إسرائيل، يتباهى بدوره في قتل السوريين وتهجيرهم على أنّه (قتالٌ للجماعات التكفيرية)، متبنّياً لغةَ بشّار الأسد في وصف معارضيه. هكذا، وبعدما كان حزب الله يحظى بهالة مُؤثّرة بصفته الطرف غير التابع لدول الاستكبار العالمي، الذي بدّل بشكل عميق توازنات القوى، تغيّرت هذه النظرة كلّياً، وانقسم الشارع العربي وتيّاراته تجاه الحزب، مع شيوع البُعد الطائفي في تفسير كلّ ما يحصل.

بطبيعة الحال، كانت العلاقة بين نظام الأسد وحزب الله تتحدّد بالمرونة في خضمّ ديناميكيات الأخطار الكامنة والمُستجِدّة، وعندما انخرط الحزب في الحرب السورية عام 2012، بدأ على استحياء، حفاظاً على شعبيته التي حصدها من حروبه مع إسرائيل، ثمّ تدرّج في موقفه ليعلن اصطفافه السياسي والعسكري الكامل إلى جانب الأسد، بعد تضخّم هواجس طهران بفقدان دورها وطموحاتها في المنطقة مع بدء الثورة وتزعزع النظام في سنواته الأولى. هناك من وصف تدخّل حزب الله بـ«الضرورة الجهادية»، وهناك من سمّاه «الغزو غير الشرعي» لبلد ممزّق إبّان ثورة ناشئة، لتبهت رمزيته المُقدَّسة في الضمير الجمعي العربي والإسلامي. ومهما تعدّدت التسميات والأهداف، فالمُؤكّد أنّ الصورة الناصعة للحزب تشوّهت بعد انتفاضة السوريين، ويمكن لأيّ متابع أن يرى كيف رقص حزب الله بحرفيةٍ على الحبل الفاصل بين جماهيريته الساحقة، ومطامعه المُبطَّنة المُجسِّدة للمشروع الإيراني، ليغدو أخطرَ الفاعلين في المشهد السوري المُتحلّل، وتُفتضح حقيقته المظلمة بصفته حليف القوى الاستبدادية، المجاور لها والمتفاعل معها، سلباً وإيجاباً. هكذا هشّم حسن نصر الله كثيراً من مصداقية الحزب وصورته، حين جهرت أفعاله بما كان يهمس الآخرون به، بصفته العمود الفقري للتحالف بين إيران وسورية، وهي رؤية جديدة بالعناية بالنظر إلى وفرة الحجج الواهية التي تبنّاها حزب الله للتدخّل، مرّة بحجة الدفاع عن العتبات الدينية الشيعية في دمشق، وتارة بذريعة الدفاع عن المحور المقاوم في الإقليم.

> يترقّب الجميع موقع حزب الله في خريطة العدوان الإسرائيلي على لبنان، ومدى صلابة الأرض التي يقف عليها، إثر الخسائر التي تكبّدها

ومع جلجلة التحولات والتبدّلات بعد «طوفان الأقصى»، التي طاولت المفاهيم والمعادلات السياسية في المنطقة، يترقّب الجميع اليوم موقع قدم حزب الله في خريطة العدوان الإسرائيلي على لبنان، ومدى صلابة الأرض التي يقف عليها، إثر الخسائر الجسيمة التي تكبّدها، التي تجعل الكرة في ملعبه، خاصّةً بعد اغتيال أمينه العام. ما يطرح تساؤلاتٍ بشأن طبيعة الردّ بعد كشفٍ سافر عن خروقاتٍ صادمة لمنظومة الحزب الأمنية، الذي إن ولد من رحم الحرب الأهلية، فإنّه يشهد حالياً فوضى غيرَ مسبوقةٍ تجعل من الصعب عليه إعادة ترتيب صفوفه وسدّ الثغرات الأمنية سريعاً. هو تحوّل تاريخي يحمل دلالات كبيرة وسط حالة من التململ والعتب سَرَت في صفوف الحزب بعد تصريحاتٍ أطلقها أخيراً مسؤولون إيرانيون وُصفت بالمهادِنة تجاه إسرائيل، زادها بلّة تجنّب المُرشد الإيراني الأعلى علي خامنئي ذكر حسن نصر الله بالاسم بعد الاغتيال، مكتفياً باستنكار قتل اللبنانيين، ناهيك عن خبر سيدفع الكثيرين للتذكّر والتفكّر إذا ثبتت صحّته، ومفاده أنّ صحيفة لو باريزيان الفرنسية نقلت عن مصادر أمنية لبنانية أنّ إسرائيل وبمساعدة «عميلٍ إيراني» حصلت على معلومات تُفيد بمكان نصر الله قبيل اغتياله.

ما تقدّم يبدو بدايةً لوضع عربي مفتوح الاحتمالات، ولعملية مُمنهجة تقوم بخلق شرق أوسط مختلف، بالتالي تعريفاً جديداً لشعوب المنطقة، ما يترك حزب الله جريحاً، ينزف وحيداً، ومن شأن هذه الصورة أن تأخذنا إلى تصوّرِ مصير مأساوي للحزب وزواله فكرةً، وربّما انتهائه تيّاراً مُتطرّفاً صغيراً خارج حضن الدولة اللبنانية، إذا ما تمت مراجعة داخلية عميقة لطبيعة الدور المنوط به، وضرورة تبنيه مشروعاً وطنياً خالصاً، وسط معطياتٍ ضاغطة، أهمها أنّ بشار الأسد سيميل نحو إعطاء الأولوية لبقائه في السلطة على كلّ ما عداه، وسيواصل سياسة النأي بالنفس التي اعتمدها بُعيد العدوان الإسرائيلي على غزّة، بصفته «العدو العاقل»، مكتفياً بإرسال مساعدات طبّية إلى لبنان، وتسهيل استقبال النازحين اللبنانيين من دون شروط.

يأتي هذا بالتوازي مع رفض رئيس الوزراء الإسرائيلي أيّ هدنةٍ، والتلويح بسيناريو التوغل البرّي في الأراضي اللبنانية، وبإسناد أميركي بالطبع، بينما ظنّ حزب الله أنّ إسرائيل ستبقى في دائرة الاشتباك المحدود خوفاً من دخول إيران على الخطّ، فاقتلاعه من جذوره يعني ضربةً مباشرةً للمشروع الإيراني المُشتهَى في الإقليم بأسره. وللمفارقة، يُعلن الرئيس الإيراني المنتمي للتيّار الإصلاحي مسعود بزشكيان، الذي سبق أنّ صرّح: «نحن أخوة للأميركيين أيضاً» مُثيراً استياءً محلّياً عارماً، يُعلن بعد عودته من نيويورك أنّ مسؤوليه أجروا محادثات مع مسؤولين أوروبيين حول الاتفاق النووي، وتمّ الاتفاق على إعادة مناقشة هذا الموضوع، مُعبّراً عن عدم رغبة طهران في اندلاع حربٍ جديدة في المنطقة. مُعطياتٌ تزيدها قسوةً مناوأةُ كثير من اللبنانيين للحرب التي ستزيد طين حياتهم بِلّة، ربّما تجعل حزب الله البيدق الأخير في لعبة شطرنج محسومة، تتخطّى قدرته على الانتصار أو حتّى التأثير.

(كاتبة سورية)

كاريكاتير **عماد حجاج**

ما يعنيه اغتيال نصر الله

مراد بطل الشيشاني

مقتل الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله من الأحداث الكبرى في الشرق الأوسط المُلتهب، ولن تنحصر تداعياته في لبنان. ورغم أنّ الإعلان عن مقتله تأخر ساعاتٍ، وجاء من إسرائيل قبل حزب الله، وحلفائه الإيرانيين، فإنّه حدثٌ يُؤثّر في المنطقة لا محالة. أثار الحدث ردّات فعل كثيرة منقسمة عربياً. وبعيداً عن تلك الانقسامات، من المهم تحليل الحدث في سياقات ثلاثة: كيف سيُؤثّر غياب حسن نصر الله في الحزب؟ وما موقف إيران؟ وأخيراً، ماذا يعني غيابه للمنطقة؟

أولاً، مقتل نصر الله ضربة كبيرة ومُؤثّرة لحزب الله. على المستوى العملياتي، جاءت هذه العملية بعد استهداف أفراد أمن الحزب بعمليتي «البيجر» و«الووكي توكي»، ومن ثمّ استهداف غرفة عمليات «الرضوان» التي رفعت من مستوى المُستهدَفين عملياتياً، وأودت بحياة قيادات الصفّ الأول منهم، لتخلص إسرائيل إلى قتل نصر الله، وقياديين آخرين، بشكل يُظهر اختراقاً أمنياً إسرائيلياً واضحاً، إذ تحوّلت إسرائيل إلى هذا النمط من العمليات «الجراحية» منذ استهدفت قيادي حركة حماس، صالح العاروري، في الضاحية، ومن ثمّ أثبتت لإيران قدراتها حين استهدفت داخل طهران رئيس المكتب السياسي للحركة إسماعيل هنيّة.

وعلى ذلك، يصعّب هذا السياق الأمني العملياتي على الحزب إعادة إنتاج قيادته، وبالتالي، يُعزّز الفكرة الإسرائيلية، وربّما للمرّة الأولى بهذا الشكل، بأنّ استهداف القيادات شتّت الهياكل والقواعد، وقد ينطبق ذلك على حالة حزب الله. وإضافة إلى الجانب العملياتي، نصر الله للحزب، رمزياً وسياسياً، هو من قاد تحوّل الحزب، الذي لطالما اتُّهم باستهداف قوات المارينز الأميركية عام 1983 بعملية انتحارية (لم يعترف الحزب بها)، من مثل هذه العلميات إلى نمط حرب العصابات، وتطوير إمكانات القصف، خاصّة أنّ المجموعات الجهادية كانت في صعود، وتتّجه نحو استخدام هذه التكتيكات بكثرة. لكن تأثير نصر الله لم يكن بهذه المحدودية، بل هو الذي نقل الحزب إلى الحضور الحركي السياسي، بعد أن استلم قيادته من صديقه عبّاس الموسوي، الذي اغتالته إسرائيل عام 1992، في إعادة إنتاج فكرة طبقة «حركة المحرومين» (أسّس عليها موسى الصدر الحركية الشيعية في لبنان عبر حركة أمل، التي انشقّ عنها حزب الله لاحقاً)، بتقديم الإطار لـ«فقراء الشيعة»، وإعادة إنتاج الضاحية الجنوبية مركزاً للحركة، للتحوّل فاعلاً سياسياً في الممارسة، بل مهيمناً في السياسة اللبنانية عُرفاً، خاصّةً أنّ الحزب لاقى معارضةً لانخراطه فيها في البدايات من بعض مؤسّسيه (صبحي الطفيلي).

كما يبدو أنّ عودة نصر الله إلى قم، رغم دراسته في النجف، أثّرت في ربطه الحزب بإيران، بشكل مباشر، أيديولوجياً (ولاية الفقيه) ومالياً، وتموضع الحزب واحداً من أكثر أذرع إيران أهمّيةً في السياسة الخارجية، وتلك الأذرع باتت واحدةً من إشكالات التفاوض الغربي الإيراني سنوات طويلة. وما بعد حرب تمّوز (2006) تصاعدت شعبية نصر الله في المنطقة بشكل صاروخي، بطرد القوات الإسرائيلية، وتحرير جنوب البلاد، لكن ليُعاد ويُثار الجدل، وتتراجع بعد تدخّل حزبه في سورية دعماً لنظام بشار الأسد، وتماشياً مع السياسة الإيرانية في البلاد.

ثانياً، وهنا يبرز الدور الإيراني، كان حزب الله يُعَدُّ دوماً أكثر أذرعها الخارجية أهمّيةً، وكان مُؤدّياً دوراً أساسياً في تنفيذ السياسات الإيرانية، وليس من السهل أن تتخلّى طهران عن حليف بهذا التأثير.

> ليس من السهل أن تتخلّى طهران عن حليف مثل حزب الله

والآن مع إضعاف الحزب بشكل كبير، وغياب نصر الله، وصعوبة إعادة بناء الهاركية العملياتية، كما أشير أعلاه، ألا ترى إيران أنّ هذه فرصة لتطبيق الرسائل التطمينية، التي دأبت ترسلها طهران إلى الغرب بأنّها ستنحو إلى السلم إن نحت إسرائيل، خاصّة أنّ إسرائيل استطاعت أن ترسم معادلة الردع لصالحها خلال الأشهر الماضية؟... هناك منطق الدولة البراغماتي يسود في إيران، كما أن حاجة طهران إلى العودة إلى المجتمع الدولي مُلحّة في ظلّ العقوبات المفروضة عليها، وتخبّط مفاوضاتها مع الغرب، واحتمالية عودة دونالد ترامب إلى البيت الأبيض. وبالتالي، لا يُستبعَد أن تعتبر طهران الثمن حزب الله. نعم، الثمن الأغلى، لكنّه قد يُعَدُّ ثمناً مُلحّاً وأساسياً.

ثالثاً، اغتيال نصر الله، وإضعاف حزب الله إلى درجة تراجع دوره في الساحة اللبنانية، قد يلقيان صدى إيجابياً لدى معارضيه في الداخل اللبناني. لكن في المقابل، إقليمياً أيضاً، وهنا تبرز السعودية التي لطالما عارضت هيمنة الحزب السياسية في البلاد، وهدّدت، لا بل قطعت معوناتها وجمّدت حساباتها تحت هذا العنوان، ما أدخل لبنان نفقَ الأزمة المالية التي يعيشها إلى اليوم.

(إعلامي أردني في لندن)

بين غزة ولبنان... هل يستعيد الجيش الصهيوني الثقة؟

أحمد الجندي

طغت سخونةُ الأحداث في الجنوب اللبناني خلال الأسبوعَين الماضيَين على اهتمام الجميع، وتراجعت غزّة من المشهد الإعلامي العربي وسط زحمة الأخبار، وأصبحت قضيتا تفكيك حركة حماس وتحرير الأسرى على هامش الاهتمامات في الإعلام الصهيوني، بعد عام من الحرب والقتل والتدمير، من دون أن تتمكن إسرائيل من تحقيق ما أعلنته من أهدافٍ منذ اليوم الأول للحرب؛ فلا هي استرجعت الأسرى، ولا فكّكت «حماس» أو جرّدتها من سلاحها. لا يوجد توصيف لذلك سوى أنّه فشل للقيادتَين السياسية والعسكرية؛ إذ لا يقاس الانتصار في الحرب بحجم القتل والتدمير، بل بتحقيق الأهداف. وهذا المعنى لا يتحدّث به العرب وحدهم، ولا الخبراء العسكريون فحسب، بل كثيرٌ من الإسرائيليين أيضاً. ولطالما تحدّث سياسيون وعسكريون سابقون إسرائيليون عن هذا الفشل، بل وحتّى على المستوى الشعبي. فخلال الأيام الماضية نشر معهد دراسات الأمن القومي الإسرائيلي استطلاع رأي عن الشهر الماضي (سبتمبر/أيلول)، أُجري على عينة من ألف شخص، 800 منهم من اليهود (هم موضع تركيزنا)، و200 من عرب 48، يقيس تقييم الجمهور تجاه «طوفان الأقصى»، وهو تقييم يكشف عدم رضا الإسرائيليين عن نتائج الحرب، ويُعبّر عن شعور واضح بخيبة الأمل تجاهها. حرص الاستطلاع على طرح أسئلة حول مستوى الثقة في مؤسّسات الدولة، أو في قيادات سياسية وعسكرية بعينها، وفي قدرة الجيش على التعلّم من دروس فشل السابع من أكتوبر/ تشرين الأول، ومدى القناعة في تحقق أهداف الحرب في غزّة، وحالة المجتمع وتماسكه. وفي هذه جميعاً، والتركيز هنا على الإسرائيليين اليهود، كانت الإجابات تُؤكّد ما ذهبنا إليه. كان مستوى الثقة في مؤسّسات الدولة متدنّياً، فعبّر 57% فقط عن ثقتهم في سلاح الاستخبارات، وتدنّت الثقة تماماً في الحكومة (22%)، واستمر تراجع الثقة في الجيش (76%) مقارنة بالوضع الطبيعي قبل «طوفان الأقصى»، أمّا الأعلى ثقةً بين هذه المؤسّسات فكان سلاح الجو (79%).

على مستوى الأشخاص، سياسيين وعسكريين، كان الأمر أكثر وضوحاً، فكانت الثقة في رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو 30% فقط، وفي وزير الأمن يوآف غالانت 35%، أمّا رئيس الأركان، هرتسي هاليفي، فكان أكثر نيلاً للثقة (رغم تدنّيها) بنسبة 46%. بل إنّ هناك نسبة معتبرة (35%) تضع ثقتها في التقارير الصادرة على لسان المتحدّث باسم الجيش الصهيوني بين المتوسّطة والمتدنّية، ما يعني وجود درجات من الشكّ في بيانات الجيش. ويرتبط ذلك بأمر أكثر خطورةً، إذ لا تثق غالبية اليهود الإسرائيليين في قدرة الجيش على استخلاص الدروس المستفادة من أحداث السابع من أكتوبر (2023). وقيّم 57% ثقتهم في ذلك بين متدنّية ومتدنّية جداً، في مقابل 34% فقط اعتبروها بين المرتفعة والمرتفعة جدّاً. يضاف إلى ذلك أنّ 43% رأوا أنّ أهداف الحرب لن تتحقّق مُطلقاً، أو تتحقّق بدرجة محدودة فحسب، في مقابل 48% اعتقدوا أنّها ستتحقّق كاملةً أو بدرجة كبيرة. وهذا يعني أنّ نسبةً كبيرةً توقّعت عدم القدرة على تحقيق الأهداف، وهي لا تقلّ كثيراً عن نسبة من اعتقدوا خلاف ذلك.

ومن الواضح أنّ تأثير «طوفان الأقصى» على المجتمع الإسرائيلي طوال عام الحرب الحالية عكس إجماعاً على القلق بشأن تماسكه. وطبقاً للاستطلاع، بات أغلب اليهود الإسرائيليين (73%) يشعرون بقلق بالغ أو كبير (قلق بالغ 46%، قلق كبير 27%) على وضع المجتمع الإسرائيلي في اليوم التالي للحرب، في مقابل 21% لديهم درجة قلق متوسّطة أو محدودة. وهو مُؤشّر بالغ الأهمية على أنّ الحرب أظهرت شروخاً كبيرةً في المجتمع، لدرجة أنّ نسبة النصف تقريباً (46%) عبّروا عن أعلى درجات القلق. وهذا يعني أنّ طول أمد الحرب، وعدم تحقّق أهدافها، تركا جروحاً غائرةً في المجتمع الإسرائيلي، ظهرت في مناسبات كثيرة، في الانقسامات، وفي طريقة قمع المتظاهرين والتعامل العنيف معهم، وفي الشعور بإهمال سكّان الشمال والجنوب وتفضيل سكّان المركز والوسط في المدن الكبرى الغنية، وفي معاناة إسرائيل من مشاكل لجوء داخلية لم تعهدها طوال تاريخها، وفي مشاكلَ عائليةٍ في أوساط جنود وضبّاط الاحتياط، يضاف إلى ذلك كلّه مشكلات اجتماعية كثيرة ناتجة من التبعات الاقتصادية للحرب.

وقد أُجري هذا الاستطلاع قبل العمليات الإسرائيلية في الجنوب اللبناني خلال الأسبوعَين الماضيَين، وأخيرها اغتيال أمين عام حزب الله حسن نصر الله، ومن ثمّ فإنّ نتائج الاستطلاع (إن أجري الآن) ستختلف تماماً وفقاً للمزاج العام وحالة النشوة والاحتفال الناتجة من النجاحات الإسرائيلية في الجنوب اللبناني حتّى اللحظة. يعني ذلك أنّ المؤسّسات الإسرائيلية استطاعت في هذين الأسبوعين أن تستعيد في الشمال كثيراً من الثقة التي فقدتها خلال العام الماضي في الجنوب، بل والشعور بنشوة لم تتمكّن من الوصول إليها طوال عام كامل، وزادت غرور الإسرائيليين بقدرة جيشهم على إنجاز اجتياح بري سريع وناجح، يتوافق مع تسمية «ترتيب جديد»، التي أطلقها على عملية اغتيال زعيم حزب الله.

ومن الطبيعي أن يُقابل هذه الثقة الإسرائيلية، التي أنتجتها هذه العمليات التي تكلّلت في النهاية بهذا الاغتيال، شعورٌ بالشكّ والحيرة داخل حزب الله، شكّ تسبّبت فيه السياسة التي انتهجتها إيران سنوات طويلة، وليس حزب الله وحده في العام الماضي. فخلال الأعوام الماضية، جعلت إيران من سياستها في استيعاب الضربات نمطاً ثابتاً، حيث اعتادت الاحتفاظ بحقّ الردّ، سواء على الجرائم التي ارتُكِبت في حقّها من الولايات المتّحدة أو إسرائيل. فقد مرّت اغتيالات قاسم سليماني وإسماعيل هنيّة (الذي كان ضيفاً على إيران) وعدد من قادة الحرس الثوري الإيراني في قصف القنصلية الإيرانية في دمشق، ومن قبل ذلك اغتيال علماءَ إيرانيين في الداخل الإيراني يعملون في المشروع النووي الإيراني، وهو المشروع الذي دفعها لتجنب أيّ ردٍّ مُستحَقّ وطبيعيٍّ خوفاً من ضربه. بمعنى أنّ هذا المشروع الذي يُفترَض أن يكون عاملَ قوّةِ إيران، كان سبباً في ارتكابها أخطاءَ إستراتيجية، تكررت مع حزب الله في أكثر من مناسبة؛ حينما قُتِل عماد مُغنيّة في عام 2008، ثمّ في استهداف عديد من قادة الحزب في الأسابيع الماضية، علاوة على ضرب وسائل الاتصالات وإصابة المئات من كوادر الحزب.

> يتقدّم نتنياهو استطلاعات رأيٍ إسرائيليةٍ مزاجيةٍ، قد تنقلب ضدّه لو شعر الإسرائيليون باتّساع رقعة التهديد

وإذا كانت الضربات التي تلقّاها حزب الله أخيراً تلقي بحالة من الشكّ داخله، فإنّ ذلك لا يعني بالضرورة سهولة الحرب البرّية، وهنا تحديداً ينقسم العسكريون الإسرائيليون السابقون بين من يطالب بالتعجّل بالعمل البري واستغلال حالة الارتباك في حزب الله، ومن يُحذّر من تكرار نفس الخطأ الذي ارتكبته إسرائيل مرّتين في 1982 و2006، ووقوع الجيش في «فخّ الموت» المُجهَّز له، في ظلّ اختلاف الجغرافيا، وحجم القدرات التي يمتلكها الحزب. اللافت هنا أنّ ثمّة حالةً ملحوظة من الهياج في إسرائيل قبل السياسيين، موالاة ومعارضة، تجاه توسيع الحرب في الجنوب اللبناني، بعد أن أغرتهم هذه العمليات، وشجّعهم دعم أميركي لا متناهٍ يصل إلى حدّ التخطيط والمشاركة في التنفيذ. وبالتالي لم يعد الهدف فكّ الارتباط بين حزب الله والمقاومة في القطاع، أو حتّى الاكتفاء بإعادة حوالي 100 ألف لاجئ إسرائيلي إلى المستوطنات في الشمال الفلسطيني المحتّل، بل ربّما إبعاد حزب الله إلى ما وراء الليطاني، وإعادة رسم المنطقة حسبما عبر بنيامين نتنياهو. وعلى الرغم من أنّ الحكم على مآلات هذه الأحداث، وإلى أيّ مدىً يمكن لحزب الله تجاوزها، يبدو مُبكّراً، فإنّ إستراتيجية نتنياهو نجحت في لفت أنظار المجتمع الإسرائيلي كاملاً إلى الشمال، وصرف اهتمامه تماماً (ولو مُؤقّتاً) عن قضيتي تفكيك «حماس» والأسرى الإسرائيليين، وصار يتقدّم استطلاعات رأي إسرائيلية مزاجيةٍ ومتقلّبةٍ، قد تنقلب ضدّه من جديد لو شعر الإسرائيليون باتّساع رقعة التهديد.

(كاتب مصري في إسطنبول)

سقطة الإخوان المسلمين

معن البياري

امتنعت جماعات الإخوان المسلمين في البلاد العربية عن نعي أمين عام حزب الله، حسن نصر الله، الذي قضى شهيداً في اعتداءٍ إسرائيليٍّ على لبنان. وكان الظن أن التنظيم العالمي (وليس الدولي بالمناسبة) للجماعة قد أدرك، منذ زمن، وبفعل عواصف ومتغيّرات غير قليلة، معنى السياسة وجوهرها، غير أن هذا الظنّ لا ينفكّ يُثبت خطأه، مرّاتٍ بعد مرّات، فالنعي الغائب، والمتحدّث عنه هنا، لا ينتسب فقط إلى مناقبيّةٍ رفيعةٍ، وسموٍّ مطلوب، وإنما أيضاً إلى السياسة، بوصفها، في مستوىً ما، احتكاكاً مع المختلف والمُغاير، ووقوعاً على المشتركات بين المتعاكسين، واقتراباً من مساحات الممكن من التوافقات والتسويات. وليس هناك ما هو أشدّ إلحاحاً في راهن الأمة العربية (والإسلامية لزوماً) من صنيع سياسي من هذا اللون، فالحساسيات والتوترات (والمنازعات) في غير بلد عربي بين المكونين، السني والشيعي، تُفصح عن نفسها بكيفياتٍ منظورةٍ وأخرى غير منظورة. ولذلك، كان شديد الضرورة أن يصدُر عن مشيخة الأزهر بيانٌ، يأسف لاغتيال زعيم عربي مسلم يقود حزباً مقاوماً، نالت منه يد الوحش الإسرائيلي في جريمة مشهودة. وليس مطلوباً من بيانٍ كهذا أن يتعامى عما قارفه حزب الله في سورية، إلا أنه كان في وسع صياغةٍ له على شيءٍ من الاتزان أن تقول ما يحسُن أن تقوله مؤسسة الأزهر، والتي تُحسب عنوانا للمسلمين السنّة، ما كان سيُحدث عظيم الأثر الطيب في رتق شقوق في الأمة.

لا يعود الأسف من عدم مبادرة أيٍّ من جماعات الإخوان المسلمين العربية إلى إعلان بيان لم ينكتب، إلى هذا السبب وحده، بل أيضاً لأن أصحاب بيانٍ آخر انكتب وذاع آثروا اشتباكاً مع الرجل الذي اغتيل، فقد أشهر المكتب الإعلامي لجماعة الإخوان المسلمين في سورية بياناً تبنّى لغةً حربية، قيمته الوحيدة أنه يعطّل منطق السياسة، ويعلي منطق تعميق الخصومة. ومع التسليم بأن مقام «العفو عند المقدرة» لا قدرة عليه هنا، إلا أن شيئاً من رفيع الأخلاق الإسلامية المحضة كان يوجب الصمت، أو الانتباه إلى خطورة إعلان فائضٍ من الغبطة بقتل الرجل في فعلةٍ إسرائيلية. إننا هنا أمام شماتةٍ تقيم في الحضيض، وبؤسٍ مروّعٍ وقع فيه كاتبو هذا البيان المستنكر، والذي كان في المقدور أن يتناول نصرالله شخصاً يحاسبه ربّه على ما فعله في مضايا والقصير والزبداني (وغيرها في سورية)، لا أن يبدي سعادةً بقتله لا تسعها الدنيا، من دون اكتراثٍ بهوية القاتل. ثمّة روح تشفٍّ وشماتة شنيعة، عندما يأتي البيان على «عظيم الفرح والسرور» الذي تلقّى فيه «الشعب السوري الحرّ وسائر الأحرار في الوطن العربي والمسلم... نبأ هلاك المجرم حسن نصرالله، زعيم حزب الله الطائفي اللبناني، ومجموعة أخرى من قيادات الحزب الوالغ بدماء الشعب السوري». وهنا تغشى أرطالٌ من الدهشة قارئ هذا الكلام الذي لا يسمّي إسرائيل إطلاقا، إذ يصدر عن «إخوان مسلمين»، لا يطالبهم أحدُ بغانديةٍ رسولية، متعالية، بل أن يعرفوا أن لغة المشتغل بالسياسة، سيّما إذا كان سورياً مكلوماً، من فائق الضرورة أن لا تجدّ في توسيع الخصومات، وأن تكترث بالعواقب، فالشماتة هنا، وإنْ أسبابها معروفة ومفهومة، على ما كتب فاروق مردم بيك بنبرة العاقل، هي «شماتة المهزومين العاجزين القانعين بما قسم لهم».

لم تكن مقنعةً محاولة مسك العصا من الوسط عندما أصدرت جماعة الإخوان المسلمين في الأردن بياناً يتضامن مع الشعب اللبناني، ويغفل عن الذي ألمّ بحزب الله، في خسران أمينه العام وقيادات ثقيلة فيه. ولم يكن مقنعاً قول المراقب العام للجماعة (في الأردن)، مراد العضايلة، إن الجماعة لم ترد أن تدخل في التفاصيل، وإنها مع كل من يحارب العدوان الصهيوني، ومع إلحاح سؤالٍ توجه إليه في الخصوص، لم يكن مقنعا قوله إن «انقساماً بشأن موضوع حزب الله ولا نريد أن ندخل فيه». ...

حسنا فعلت حركتا حماس والجهاد الإسلامي، أما سقطة الإخوان المسلمين فكبيرة.

مثلث النرجسية والرغبوية والنزعة العدوانية

عيسى الشعيبي

بين جملة طويلة من النواقص والعاهات والإعاقات التكوينية الغائرة عميقاً في تلافيف العقلية الإسرائيلية السائدة، تتجلّى، في هذه الآونة، ثلاث خاصّيات فكرية مهيمنة في معظم المفاهيم المسيطرة بقوة على الخطاب السياسي والإعلامي الرائج، ولا سيّما منذ «طوفان الأقصى»، والمُستحكِمة أيضاً في المجال العبري العام، بما في ذلك المداولات والنقاشات المُحتدِمة داخل مختلف أوساط الطيف الحزبي، بين اليمين الصهيوني المُتطرّف واليمين القومي الديني الأكثر تطرّفاً، إذ لا يكاد المراقبُ للسجالات الصاخبة في الصحافة والاستديوهات أن يعثر على صوت يُغرِّد خارج هذا السرب المُحلِّق في مدار مُغلق على نفسه.

في هذه العجالة، نُكثّف الضوء على أبرز ثلاث إعاقات كامنة في أرضية هذه المفاهيم المُشوَّهة، أوّلها عاهة النرجسية المُفرِطة، المُفضية بالضرورة الحتمية إلى فضاءِ الغرور الفجّ والسعار والامتلاء بالاستعلاء والغطرسة، والمفتوحة من ثمّ على دروب التمييز العنصري، والفظاظة في الأقوال والأفعال، والإفراط في العنف والتطرّف، ناهيك عن الميل الدائم إلى الإنكار والتعصّب والانفصال عن الواقع، وحدّث ولا حرج عن المبالغات والافتراضات والرهانات القائمة على مبدأ القوة الغاشمة، وعمى الإعجاب بالنفس، وانعدام الرؤية الموضوعية.

ولعلّ عاهة النرجسية هذه، النابعة أساساً من نشوة الانتصار المُدوّي في حرب 1967، هي جذر الداء العُضال، الذي لم تُشفَ منه الذهنية الإسرائيلية في مدى العقود الطويلة الماضية، إنْ لم تكن هي السبب الأوّل لحالة الجنون العامّة الطامّة، التي غشيت القوم صباح سبتهم الأسود، في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول (2023)، وفتحت عيونهم على حقيقة صادمة، لم تَرِدْ ربّما في أسوأ كوابيسهم، وهي أن من كانت تنظر إليهم باستصغار ودونية قد أوقعوها أرضاً ونالوا من كبريائها بشدّة، الأمر الذي يُفسّر هذه الهستيريا المُطبِقة، ويعلّل هذا التمادي كلّه في حرب الإبادة على غزّة، ثمّ على لبنان أخيراً، لإدامة سَكْرَة الخامس من حزيران/ يونيو (1967) إلى أجل لا نهاية له، أكثر من استعادة قوّة الردع والهيبة.

الإعاقة الذهنية الثانية الرغبوية، أي اتخاذ المواقف والقرارات القائمة على التمنّيات، عوضاً عن التقديرات الواقعية، فهي ماثلة في سياسات اليمين الفاشي الراهنة، التي لا ترى إلّا ما تحبّ أن ترى، تتمسّك بدور الضحية الأبدية، وتُشخّص أيَّ انتقاد لفجورها مظهراً من مظاهر العداء للساميّة، حتّى وإن صدر عن منظّمات حقوق الإنسان، أو عن محكمتَي العدل والجنايات الدوليّتَين، أو حتّى عن الأمم المتّحدة، اعتقاداً من أصحاب هذه العقلية الإجرامية أنّهم محصّنون من المساءلة، وأنّ دولتهم المارقة فوق القانون، وأنّ للضحية التي راحت تُقلّد جلّادها وتتفوّق عليه، الحقّ المطلق في طلب معاملةٍ تفضيلية.

أما الإعاقة الثالثة، المتجلّية بأكثر مظاهرها وحشيةً في هذه الآونة، فهي النزعة العدوانية المعطوفة على وهم القدرة الكلّية، الكفيلة وحدها بحلّ كلّ معضلة، وإيجاد مخرجٍ لكلّ أزمة، فإنْ لم تكن جرعة القوّة كافيةً فبالمزيد من هذه القوة، إلى أن يُكوَى وعيُ العدوّ ويُحمَل على تجنّب التحرّش بكلب موشيه ديان المسعور جدّاً، وذلك تأسيساً على مبدأ الإخضاع والإكراه والإرهاب، وكسر الإرادة ودسّ الإصبع في العين، وإن لم يتأتَ لها ذلك كلّه فلا بأس من سحق العدو، وإنْ لزم الأمر مَحقه، تماماً على نحو ما جرى في غزّة طوال عام كامل، ويجري اليوم في لبنان. ومع أنّ هناك إعاقات وعاهات أخرى عديدة، المُؤسِّسة لهذه العقلية المُشوّهة، المتسبّبة في أمراضها المستدامة كلّها، إلّا أنّ الوقوف على نقيصة واحدة من النقائص آنفة الذكر تكفي بالحدّ الأدنى للقيام بمقاربةٍ ناجحةٍ لإدراك دافعية هذا السعار المُستشري في أوصال الدولة العبرية، وفهم هذا الجنون المطبق على سديم فضائها الكالح.

غيابُ الخطاب أم غيابُ المخاطَبين؟

أسامة عثمان

في هذه الأزمات الطاحنة التي تتوزَّع في المنطقة العربية، من فلسطين إلى لبنان إلى السودان، وكذلك في سورية، وغيرها، يُوجَّه اللوم إلى المثقّفين، أو إلى العلماء وقادة الرأي والتأثير، لضعف دورهم، وانحسار مواقفهم، بما لا يرتقي إلى مستوى الأزمات والمخاطر. ومع الإقرار بوجاهة هذا الانتقاد، إلّا أنّ الموضوع يحتاج إلى استحضار جوانبه الأخرى.

ومع طول الجدل في أهمّية الكلمة، ومدى ما يُعوَّل على الأفكار، في سبيل تغيير مسارات التاريخ، فإنّنا لا نملك إلا أن نحاولها، حتّى نَنجو من القدرية التي تُغيِّب الإرادة الإنسانية، وحتّى لا نتنصَّل من المسؤولية، مع قناعتنا بتفاوت المسؤوليات تبعاً للنفوذ والسلطة. وحتّى لا يصير الخطاب مُجرَّد صرخة في وادٍ، لا مفرّ من النظر في عناصره، وملابساته، وفي عملية التخاطب.

يلزم النظر أساساً في منشئ الخطاب ومتلقّيه، وتحقّق الخطاب نفسه. ويمكن لطرفي الخطاب؛ المُخاطِب والمخاطَب، أن يتلاوما على خلفية التقصير والقصور. وقد يكون في نقد كلٍّ منهما الآخر صواب، فأرباب الخطاب مُعرَّضون لمراعاة مصالحهم ومخاوفهم، والمخاطَبون مُعرَّضون لصوارف الاستجابة لإحساسهم بثقل التكاليف التي يتوخّاها الخطاب، ولاستلابهم لأولويات وواجبات مباشرة لن يؤدّيَها عنهم سواهم، أو لتصورات حياتية تغلب عليها روح الاستهلاك، وملاحقة مُستجدَّاته التي لا تتوقَّف. وقبل بعض التفصيل، قد يلزم التنبُّه إلى حُكمٍ عامٍّ يَصدُق على الجماعات والشعوب، وهو التفلّت والتنقّل بين مراكز الاهتمام من قضية إلى أخرى. من قضية جادّةٍ، إلى قضايا تافهةٍ تشغلهم، أو يُشغَلون بها، ومن الحماسة الفائقة إلى برود العاطفة وانطفاء الاهتمام بناءً على تقديرات بأنّ نَفَس الشعوب قصير، ما لم تنخرط فعلاً في قضيّة تصبح مفاعيلُها دافعةً لها، دفعاً شبيهاً بالإرادي، أو الحاصل بقوّة خارجيةٍ أمسكت دولاب الحركة، كما حدث في الحروب العالمية، وفي الشعوب الأوروبية التي دخلت في أتون الحروب، فطحنت من نفوس أبناء الملايين، وكثير منهم كارهون، أو مُكرَهون، لكنّ مقتضيات الانتماء أقوى حينها من فردانية الأشخاص، فكان لوصمة الجبن والخيانة سطوةٌ غالبةٌ، أو أنّ التهديد الواقع والداهم لم يترك مناصاً من الدفاع عن الوطن، في قالب الدفاع عن الذات وعن المقرَّبين، فضلاً عن مُولِّدات الثأر والانتقام.

> نحتاج إلى توفير خطاب جامع يبلور قواسمَ مشتركةً يحتاجها الجميع؛ وتوفُّر قوّة فعلية حاسمة تنجح في تحقيق نجاحات مادّية تعيد الأمل

بالطبع، إنّ توسّع دائرة الصراع لينتج هذا الالتحاق المتواصل، لم يكن ليتحقّق لولا تحقّق نواة صلبة مؤمنة بضرورة الصراع، تواتيها الظروف التاريخية لتكون قادرةً على الحسم إزاء القوى الأخرى المُعارِضة، أو النقيضة.

لكنّ المسألة ابتداءً قد تكون في النظر في سؤال: هل المُخاطَب متماثل، وجاهزٌ لتلقّي الخطاب، أم له صوارف، تُغيِّبه كالانقسامات الطائفية، إذ أصبح التخوُّف الطائفي يوازي أو يفوق مواجهة الخطر الخارجي، ذلك للتجارب المريرة التي وقعت فعلاً على خلفية طائفية، أو باستخدام الأبعاد الطائفية لقدرتها على الحشد والاستنفار باستدعاء مخاوف مزمنةٍ ومظلومياتٍ تاريخيةٍ تصبح أقربَ إلى الاشتعال وقت غياب خطاب حاسم قادرٍ على طيِّها أو تنحيتها، أو تعطيل عملها الجماعي السياسي.

ثمّ تأتينا الإنهاكات الناجمة عن خيبات سابقة، كإخفاق ثورات الشعوب العربية، ومن قَبْلها الهزائم التي مُنِيت بها دولٌ عربية في مواجهة دولة الاحتلال، نجمَ عنها شعور كثيرين بأنّ الموضوعات السياسية العامّة ليست من شأنهم، أنّ لها ناسَها، إذ عطَّل التهميشُ الطويل للعمل السياسي الجماعي والحزبي، والأُطُر الطلابية والنقابية وسواها، فاعلية الانخراط السياسي، وحتّى القدرةَ على التنظيم والحشد والتوجيه وصولاً إلى إحداث تأثير ضاغط. وبعد ذلك، أغلب الناس واقعون تحت انشغالات مُلحَّة وثقيلة من أجل توفير واجبات الحياة الأساسية. ويتفرّع من هذه الإكراهات الفردية (وعلى العكس من معوقات الأعباء) شِقٌّ مناقض لها، وهو تلك الأوساط المجتمعية الانعزالية، أو العاجيَّة، التي لا تشعر بأنّ الواقع يتطلَّب أيَّ تغيير؛ لأنّهم نجحوا في التموضع في موضع الإشباع والرفاهية، بل هؤلاء يخشون أيَّ تغيير، ومِن شأنهم العمل ضدَّه.

فأُولى أولويات الخطاب، حتّى يندفع ويكتسب حماسته اللازمة، أن تظهر على المُخاطَب العنايةُ بحمولات الخطاب، أن يتشوَّق لسماعه، أو أن يشغله، أو على الأقلّ أن يجد في نفسه الاستعداد للعناية به، تفهُّماً له وتمحيصاً، والتزاماً به على المستوى المفاهيمي، أو على المستوى العملي. وهنا، لا بدَّ من استدعاء بيتَي الشعر الشهيرَين، المنسوبين إلى الشاعر المُخضرَم عمرو بن معديكرب: «لَقَد أَسمَعتَ لَو ناديتَ حَيّاً/ وَلَكِن لا حَياةَ لِمَن تُنادي/ ولو ناراً نفخْتَ بها أضاءت/ ولكن أنتَ تنفخُ في الرمادِ».

وبخصوص الجماهير، فإنّها والزعيم حجرا الرَحَى، فهي محتاجة إلى زعيم يلهمها، ويلتحم مع تطلعاتها، ويتحمَّل أمنياتها. إذ النقص يتعدَّى فقدان مثل هذا الزعيم بتلك المواصفات الجامعة، إلى تفكُّك الجماهير وتذرُّرها، إلى أفراد يغلب عليهم التقولب والانكفاء. وثمة أملان، أو نوعان من العلاج؛ طويل المدى، وهو توفير خطاب جامع قادر على بلورة قواسمَ مشتركةٍ يحتاجها الجميع؛ والثاني توفُّر قوّة فعلية حاسمة تنجح في تحقيق نجاحات مادّية تعيد الأمل.

ونحن إزاء منتظَرات الخطاب محتاجون إلى بعض التمهُّل، إذ الخطاب الراهن، المتولِّد من رحم الأزمات الواقعة والمُتمدِّدة، في كثير من أحيانه، لا يتغيَّا مطالبَ محدودة مُحدَّدة، تحقّقت الجاهزية لتلبيتها، إذ مثل هذه المطالب يسارع الناس إلى فِعلها بصورة تلقائية أو بأدنى مناشدة، كما يحدث في لبنان من إيواء أهل الجنوب، الفارّين من نار الحرب. إنّ المطلوب الذي يطمح له الخطاب، والذي يمكن أن يُحدِث أثراً يوقف المأساة في غزّة، مثلاً، أو في لبنان، أو في السودان، لم تلتئم حالة فكرية سياسية ومجتمعية تحقيقاً، فالجيوش العربية مثلاً لم تُبْنَ عقيدتُها العسكرية للتعامُل مع هذا النوع من التحدّيات، والأوساط السياسية والطبقات الحاكمة في وادٍ آخرَ غير الوادي الذي فيه المصطلون بالحروب ووِيلاتها، والبنية القيمية الاجتماعية لم ترتقِ إلى درجة تقديم التضحيات اللازمة، وهي ليست هيِّنة أو رمزية.

قد يسبق إلى الأذهان أنّ الزمن طويل، حتّى النضج المأمول، إلّا أنّ ذلك ليس مُؤكَّداً، فقد يسهم تفاعل الأفكار مع الأحداث المتسارعة في اختصار الزمن، قد تتحقَّق نتائج بوتائر سريعة ما لم نلمسه في عقود من الزمن، ويبقى من المفيد مراكمةُ أفكار بنائية، حين يحسُّ الناس بنضج استعداداتهم ينقادون، لا بفراغ العواطف، ولكن بما ترسَّب في وعيهم من قناعات مُشترَكة أو متقاربة.

(كاتب فلسطيني)

مصر وزراعتها ومزارعوها

عمر سمير

تعاني مصر من أزمات متعدّدة في الغذاء والمنتجات الزراعية، من الحبوب والخضروات وأسعارها القياسية. بالذات السلع الأساسية من البطاطس والطماطم والبصل، التي هي عماد المطبخ المصري والنظام الغذائي الذي أسّسه الفقر وآليات التكيّف معه على نظرية الحصول على أكبر قدر من السعرات الحرارية بأقلّ كلفة ممكنة، ليتلاءم مع الدخول المتدنية للغالبية العظمى منا نحن المصريين. وبينما البلاد غارقة في معاناتها تلك، تنطلق صرخات شعبية بين حين وآخر عند ارتفاع سلعة ما بشكل غير متوقّع أو فجائي، كما هو الحال بالنسبة للجدل في أسعار الطماطم حاليا، وتفتقد البلاد لأصوات العقل الرسمية التي تدعو لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بالتوقّف عن سياسة وقف دعم المزارعين، الذين تتقلّص مخصّصات دعمهم عاماً بعد عام. والجدل السابق حول أسعار البصل، ومن قبله البطاطس، ليس ببعيد. هكذا صارت مناقشات غالبية المصريين وهمومهم الأساسية مع الأسف، بينما تتهدّد أمن البلاد ومستقبلها حروبٌ ومشكلات كبرى في كلّ اتجاه. من الجنوب، لا تزال الحرب دائرةً في السودان، وإثيوبيا مستمرّة ببناء سدّها أقسى حروبه مستمرّة منذ عام. في هذا السياق، وفي ظلّ تبنّي النظام في مصر سياسةً تقشفيةً قاسيةً، توقّف أولاً (منذ عدّة سنوات) عن دعم تلقيح المواشي، ومن ثمّ ترك المزارعين ومواشيهم عرضةً للأمراض والأوبئة الموسمية الخطيرة التي لا يمكن مقاومتها بشكل فردي، ولا يمكن أبداً تركها للإمكانات المادّية للمزارعين، ولا لرغباتهم في الحصول على اللقاحات اللازمة، في سياقات تحكمها ثقافة الحسد والخوف منه، وما يتبعها من استعراض الضرر الذي قد يكون خطراً على الصحّة العامة للإنسان والحيوانات معاً. ولا يجد المزارعون الخدمات البيطرية اللازمة من لجان وحملات التلقيح التي كانت تمرّ على القرى والنجوع والكفور بشكل دوري، للوقاية من الأمراض الموسمية، ويتركون لقوى السوق التي حكمت على مصر بهجرة بيطريّيها وتوقّف التعيين بالإدارات البيطرية والإرشاد الزراعي، كما هو حال بقيّة القطاعات منذ صدور قانون الخدمة المدنية تقريباً، أيّ أنّه حتّى من يرغبون بتلقيح مواشيهم على حسابهم الخاص لم يعودوا يجدون تلك الخدمات بسهولة، إذ يتطلّب الأمر نقلاً مكلفاً للماشية للقرى الأمّ، التي لديها وحدات بيطرية، والمزارعون بطبيعة الحال يخشون الحسد والحشد والتوجيه وصولاً إلى إحداث تأثير ضاغط. وبعد ذلك، أغلب الناس واقعون تحت انشغالات مُلحَّة وثقيلة من أجل توفير واجبات الحياة الأساسية. ويتفرّع من هذه الإكراهات الفردية (وعلى العكس من معوقات الأعباء) شِقٌّ مناقض لها، وهو تلك الأوساط المجتمعية الانعزالية، أو العاجيَّة، التي لا تشعر بأنّ الواقع يتطلَّب أيَّ تغيير؛ لأنّهم نجحوا في التموضع في موضع الإشباع والرفاهية، بل هؤلاء يخشون أيَّ تغيير، ومِن شأنهم العمل ضدَّه.

> ما بين أزمات سياسية واقتصادية وبيئية تبقى مصر ومزارعوها وزراعتها في قلب الخطر، الذي يقتضي مراجعةً كبرى للسياسات الاقتصادية والزراعية

فأُولى أولويات الخطاب، حتّى يندفع ويكتسب حماسته اللازمة، أن تظهر على المُخاطَب العنايةُ بحمولات الخطاب، أن يتشوَّق لسماعه، أو أن يشغله، أو على الأقلّ أن يجد في نفسه الاستعداد للعناية به، تفهُّماً له وتمحيصاً، والتزاماً به على المستوى المفاهيمي، أو على المستوى العملي. وهنا، لا بدَّ من استدعاء بيتَي الشعر الشهيرَين، المنسوبين إلى الشاعر المُخضرَم عمرو بن معديكرب: «لَقَد أَسمَعتَ لَو ناديتَ حَيّاً/ وَلَكِن لا حَياةَ لِمَن تُنادي/ ولو ناراً نفخْتَ بها أضاءت/ ولكن أنتَ تنفخُ في الرمادِ».

وبخصوص الجماهير، فإنّها والزعيم حجرا الرَحَى، فهي محتاجة إلى زعيم يلهمها، ويلتحم مع تطلعاتها، ويتحمَّل أمنياتها. إذ النقص يتعدَّى فقدان مثل هذا الزعيم بتلك المواصفات الجامعة، إلى تفكُّك الجماهير وتذرُّرها، إلى أفراد يغلب عليهم التقولب والانكفاء. وثمة أملان، أو نوعان من العلاج؛ طويل المدى، وهو توفير خطاب جامع قادر على بلورة قواسمَ مشتركةٍ يحتاجها الجميع؛ والثاني توفُّر قوّة فعلية حاسمة تنجح في تحقيق نجاحات مادّية تعيد الأمل.

ونحن إزاء منتظَرات الخطاب محتاجون إلى بعض التمهُّل، إذ الخطاب الراهن، المتولِّد من رحم الأزمات الواقعة والمُتمدِّدة، في كثير من أحيانه، لا يتغيَّا مطالبَ محدودة مُحدَّدة، تحقّقت الجاهزية لتلبيتها، إذ مثل هذه المطالب يسارع الناس إلى فِعلها بصورة تلقائية أو بأدنى مناشدة، كما يحدث في لبنان من إيواء أهل الجنوب، الفارّين من نار الحرب. إنّ المطلوب الذي يطمح له الخطاب، والذي يمكن أن يُحدِث أثراً يوقف المأساة في غزّة، مثلاً، أو في لبنان، أو في السودان، لم تلتئم حالة فكرية سياسية ومجتمعية تحقيقاً، فالجيوش العربية مثلاً لم تُبْنَ عقيدتُها العسكرية للتعامُل مع هذا النوع من التحدّيات، والأوساط السياسية والطبقات الحاكمة في وادٍ آخرَ غير الوادي الذي فيه المصطلون بالحروب ووِيلاتها، والبنية القيمية الاجتماعية لم ترتقِ إلى درجة تقديم التضحيات اللازمة، وهي ليست هيِّنة أو رمزية.

قد يسبق إلى الأذهان أنّ الزمن طويل، حتّى النضج المأمول، إلّا أنّ ذلك ليس مُؤكَّداً، فقد يسهم تفاعل الأفكار مع الأحداث المتسارعة في اختصار الزمن، قد تتحقَّق نتائج بوتائر سريعة ما لم نلمسه في عقود من الزمن، ويبقى من المفيد مراكمةُ أفكار بنائية، حين يحسُّ الناس بنضج استعداداتهم ينقادون، لا بفراغ العواطف، ولكن بما ترسَّب في وعيهم من قناعات مُشترَكة أو متقاربة.

(كاتب فلسطيني)

الهجرة والأنظمة الطاردة للشعوب

مالك ونوس

في وقت تُصنَّف فيه دولٌ كثيرةٌ السكّانَ مواردَ بشريةً، تُضاف إلى ما تملكه تلك الدول من مواردَ طبيعيةٍ ومن مقوّماتٍ اقتصاديةٍ وجغرافيةٍ وسياسيةٍ وعسكريةٍ تُعَدُّ من عوامل قوّتها، تَعتبر أنظمة عربية السكّان عالةً عليها، وأنّه من الأفضل التفكير في طريقةٍ للتخلّص من عدد كبير منهم. ولا تحتاج الشعوب العربية إلى سماع هذه الحقيقة صراحةً لتصدّقها، ولكي تبادر بترك أوطانها والهجرة إلى بلدان أخرى. لذلك يكفي أن تتخلّى حكومات الأنظمة العربية عن عدد من واجباتها ومهامّها حتّى يختل اقتصاد البلاد، ويتخلخل الوضع الأمني والبنى الاجتماعية والنفسية لدى أبنائها، فتلجأ أعداد منهم إلى الهجرة القسرية، وتَكْثُرُ السُّبحةُ حتّى تصبح مُغادرةُ البلاد ظاهرةً أقرب إلى الهروب الجماعي منها إلى الهجرة.

وفي هذا السياق، كان لافتاً (وحزيناً) المشهدُ الذي أظهر تسابقَ مئات الأشخاص للتجمّع قرب قرية الفنيدق على الساحل الشمالي للمملكة المغربية تحضيراً لتخطّي السياج الشائك، والعبور إلى جيب سبتة (الذي تحتلّه إسبانيا)، في 15 من الشهر الماضي (سبتمبر/ أيلول)، بعد تلقّيهم دعوات إضافةً إلى جيب مليلية المحتل هو الآخر، محاولاتِ عبور اعتياديةٍ ولا تتوقّف، إذ قالت وزارة الداخلية المغربية إنّها منعت أكثر من 11300 محاولة للعبور إلى سبتة، و3300 محاولة أخرى إلى جيب مليلية، خلال شهر أغسطس/ آب الماضي وحده.

> من أسباب الهجرة عوامل جعلت المواطن العربي يشعر بتمزُّق مكوّنات هُويَّته الوطنية، التي يُعَدُّ الشعور بالانتماء واحداً من أهمّها

وقد أعاد المشهد المغربي إلى الذاكرة المشهد السوري خلال التغريبة السورية، التي بدأت سنة 2015، ولم تنتهِ بعد، وسُجِّل فيها توافد عشرات آلاف المهاجرين السوريين إلى أوروبا، كان من بينهم جماعات شكّلت سلاسلَ بشريةً سالكةً طريقها مشياً على الأقدام، في مسارات طويلة قطع المشاركون فيها مئات الكيلومترات عابرين عدّة بلدان. وقادتهم تلك الرحلات من تركيا إلى ألمانيا، وغيرها من الدول الأوروبية، بالتزامن والتوازي مع الطرق البحرية، التي سلكها سوريون آخرون للوصول إلى هذه القارّة الآمنة، هاربين من الحرب، ومدفوعين باليأس من عدم وجود أمل بانتهائها، أو الوصول إلى حلّ سياسي يضع حدّاً لها. ولكن، إذا كانت الحرب مُبرِّراً لحصول هجرات جماعية، كتلك الهجرة السورية، هنالك ما يثير الاستغراب بسبب تلك الهجرات الجماعية التي تجمع أناساً من بلدان تشهد استقراراً أمنياً، في حين أنّ الهجرات الفردية كانت سمتها قبل ذلك. إلّا أنّ الذي حصل في المغرب، وتواصُل انطلاق مراكب المهاجرين من تونس وليبيا، تحمل رُكّاباً من جنسيات عربية وأفريقية عديدة باتجاه أوروبا، يدفع إلى التفكير والاعتقاد أنّ ثمّة طارئاً جديداً حلّ في مزاج المواطن العربي، ودفعه إلى اليقين بأنّ حال البؤس حال مقيم، وتغييره بات أمراً مُستبعَداً في ظلّ اليأس الذي حلّ بغالبية أبناء بلداننا.

تتوفّر الظروف التي دفعت وتدفع المواطن العربي (خصوصاً في دول المشرق والمغرب)، إلى الهجرة القسرية خارج بلاده؛ إلى أي مكان يحفظ كرامته ويقدّم له أقلّ متطلّبات العيش الإنساني الكريم التي يفتقدها في بلاده. فقد تضافرت عوامل عدّة جعلت هذا المواطن يشعر بتمزُّق عوامل تكوُّن هُويَّته الوطنية، التي يُعَدُّ الشعور بالانتماء واحداً من أهمّها. لذلك نرى أنّ المواطن قد فقد الشعور بالمواطنة حين تكالبت عليه مصاعبُ لا تُحصى، جعلته يلهث طوال يومه لتأمين الحدود الدنيا من متطلّبات المعيشة له ولأسرته، لكنّه يفشل في مساعيه، على الرغم من أنّه موظفٌ أو عاملٌ في مِهَنٍ لا توفّر له الدخل الأدنى المُعترَف به دولياً. علاوة على ذلك، يفقد المواطن الشعور بهُويَّته ومواطنيته حين يفقد الأمان الشخصي في وطنه، بعدما فقد الأمان الاقتصادي والاجتماعي. إذ كيف لشخص يشعر طوال الوقت بأنّه متَّهم، بغض النظر عن نوع التهمة، لمُجرَّد أنّه وُلِد في هذه البقعة من البلاد العربية أو تلك، أو لمُجرَّد أنّه يحمل رأياً مُخالفاً، سواء جاهر به أم كتمه؟ كيف له أن يشعر بالانتماء إلى وطن لا عمل للسلطة فيه سوى قسر رعاياها وترهيبهم، فلا يجدون أمامهم سوى الهروب خارجه لضمان سلامة جلودهم؟ ... وإذا لم يكن خطرُ حمل الرأي المخالف دافعاً للهروب، فإنّ انحدار تلك الدول اقتصادياً وماليّاً واجتماعياً وأمنياً لتصبح دولاً فاشلة، يدفع فئاتٍ عديدةً من مجتمعاتها إلى الهروب بعدما فقدت عواملَ الأمان التي تسبب بها فقدان البلاد استقرارها. غير أن الملاحظ في موجات الهجرة، أو «الهروب الجماعي» (وهو عنوان الوسم الذي كان وراء تنظيم تلك الواقعة في المغرب)، أنّ الأنظمة لا تعبأ بتلك الهجرات، ولا تعترف بموجات الهروب الجماعي أو حتّى الفردي، وكأنّ الأمر لا يعنيها، ولا يُشكّل تهديداً للمكوّن الاجتماعي ولاقتصاد البلاد، ولا يسلبها خاماتها العلمية حين يُفرِّغ البلاد من الأطباء والمهندسين وأصحاب الاختصاص في التكنولوجيا والعلوم، إضافةً إلى تشكيل البيئة الطاردة لرؤوس الأموال والاستثمارات.

في وسائل التواصل الاجتماعي تدعوهم إلى الهجرة الجماعية إلى هذه المدينة، في محاولةٍ للعبور منها إلى أوروبا. وكان من بين هؤلاء أفارقةٌ ومغاربة، توزّعوا بين نساء ويافعين وكبار، لكنّ الشرطة المغربية تصدّت لهم، وأعادت قسماً كبيراً منهم إلى المناطق التي قدِموا منها. وتشهد هذه المنطقة عادةً، وقاربت على الانتهاء منه. غرباً لا يزال خطر تجدّد الحرب قائماً وبقوة، في ظلّ الصراع على مصرف ليبيا المركزي ومؤسّستها الوطنية للنفط. في الشمال الشرقي لا يزال الصراع العربي الإسرائيلي في واحدة من

(كاتب سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads